النقود القديمة

يعجب الشرقيّ كثيرًا حين يرى بعض الافرنج يعتنون عن النقود القديمة (الانتيكا) فاذا عثروا على شيء من جيدها اجزلوا العطاء في ثمنه

ولقد سئلنا مرارًا عن رغبة الافرنج هذي فكنا نجيب السائل ان رائدهم من جمعها الفائدة العلمية فقراءة لا يكاد يصدق ان قطعة من المعدن الصامت سبق لها ان لعبت في المعاملة دورها حتى انتفى ودائت دولتها التي جعلت لها ثمنًا وهي مع ذلك ما برحت ذات فائدة تُرجى فنحن الآن نجلو هذا السر الغامض الا عن الذين اتاهم الله علمًا

لم يكن الناس في بدء امرهم يعرفون البيع والشراء بثمن مسمًّى وانما كانوا يتقايضون مقايضة . والمقايضة عبارة عن اعطاء شيء بغيره مما يتوسّم به . مثال ذلك ان لزيد حقلاً يزرعهُ قمحًا فيأخذ من غلّهِ كفاً حاجتهِ ويبقى عندهُ شيء زائد عن تلك الحاجة على انهُ لم يكن عندهُ انعام يقوم على رعايتها وينتفع بدرها وبالصوف الذي يجزّهُ منها فيتخذ منهُ كساء وكان خالد قطيع من الضأن ولكنهُ لم يكن لهُ حقل يزرعهُ فزاد صوف الغنم عند خالد على حاجتهِ كما زاد القمح عند زيد فسعى خالد الى زيد ان يعطيهُ ما زاد عندهُ من القمح فيعطيهُ هو مقدارًا من الصوف يحسب مساويًا لما يُعطى من القمح

وظلت المقايضة بحكم التراضي بين المتعاقدين شائعة بين الاولين حتى اثبت العرف العام نسبة الشيء الواحد الى الآخر . يستدل على هذا بما تجدهُ لهذه العهد من تعامل اهل الفطرة

ويستدل على تحكم العرف في تقدير نسبة الاشياء بعضها الى بعض بما تجدهُ مذكورًا في الكتابات الاثرية من ان بعض الملوك الفاتحين كانوا اذا ظفروا قطرًا ضربوا الجزية على اهلهِ ذهبًا وفضةً ونحاسًا وحجارًا كريمة وحللاً فاخرة وعبيدًا واماء وغنمًا وبقرًا وغير ذلك مما يظهر انهُ لم يكن لقوم يرتفع شيء يتخذ قاعدةً في الثمن

واستمرّ هذا جاريًا على النهج الذي ذكرنا او قريبًا منهُ حتى ازدادت المعادن وجودًا وانتشارًا فجعل منها قاعدة الثمن او قوامهُ بمعنى انهم صاروا يحسبون الشيء المراد بيعهُ بنسبتهِ الى وزن مسمًّى من الذهب او الفضة او النحاس

وما لبث المعدن ان نال مقامهُ في الخدمات الرافية بعض الشيء او كل الرقي فصار قوامًا يُرجع اليهِ في تعديل الاثمان ولكن معرفة تقويم اثمان العروض الاخرى يرجع في تقديرها الى النسبة بينها وبين الثور او الخروف ثم بين هذين والمعدن

وبدأ التعامل بالمعدن على ان يتخذوا منهُ قطعاً صغاراً يزنونها ويحكمونها على نسبة الثمن المعدَّل من غير تمحيص لصحة المعدن ولا ضابط لسيره . وجرى على هذا معظم الامم القديمة في بدء رقيها وفي عمرانها الاَّ ان المصريين اتخذوا من المعدن خواتم ودمالج وعقوداً وجعلوا لكلٍّ منها ثمناً يرجع فيهِ الى ثمن المواشي لان المواشي قوام المعيشة واهم الاعمال في كثير من المجتمعات الاولى والدليل القاطع على شأنها في المعاملة انهُ وجدت قطع من الفضة كان يتعامل بها الرومانيون وعليها صورة ثور او غيره من المواشي وفوق هذا فان المال في اللغة اللاتينيَّة Pecunia مشتقٌّ من كلمة Pecu وهي اسم المواشي عندهم

ثم ان هوميروس الشاعر اليوناني الذائع الصيت لم يأتِ بنبإٍ عن وجود النقود المضروبة بين قومهِ مع انهُ لم يهمل شيئاً من مقوِّمات حضارتهم فهو يقول في موضعٍ انهم قايضوا ثوراً بسبيكة من النحاس طولها ثلاث اقدام وقال في موضع آخر ان المرأة البارعة تساوي اربعة ثيران

فهذه الرواية اثبتت ان القوم كانوا يتخذون البقر قاعدة لتثمين العروض وان الثور الواحد كان يعادل مقداراً من النحاس

وافادت ايضاً انهم في زمن الشاعر كانوا قد بلغوا من التدرُّج في المعاملة الى حد استعمال السبائك المعدنية . والسبائك كما ترى هي الحلقة الموصلة بين اساليب التعامل القديم والنقود المضروبة . وبها نقضي على وزن المعاملة عند ادائها لان السبائك توزن مرةً واحدة عند صوغها ويكتفى بعدِّها ولذلك ناب العد مناب الوزن الاَّ ان انقضاء زمن الوزن عند العرب لم يقضِ على الكلمات المستعملة للتعبير عنهُ لتجد كتَّاب العربية حتى في عصر حضارتهم حين لم يكتفوا بالسكة المضروبة عند جيرانهم بل جعلوا يضربونها في بلادهم — حتى يومنا هذا ترى كتَّابهم يقولون وزن لهُ الدراهم او الثمن اذا ارادوا ان يعبروا عن معنى الاداء

واما السبائك من الذهب والفضة فبالطبع لم يكن حجمها كبيراً لتبقى معادلةً لاثمان العروض يدل على هذا ان السبيكة باليونانية تسمى باسمٍ اشتق منهُ اسم ضربٍ من الدريهمات يقال لهُ اوبولوس Obolus ومن ثم فان راحة الرجل تملأ بستٍ من تلك الدريهمات واسم الراحة باليونانية مصدر اشتق منهُ اسم الدرخما Drachma التي تساوي ستاً من الاوبولوس

على ان وزن السبائك وسلامة معدنها من الغش لم يكونا في امن بضمان الدولة كما هو الحال في النقود المضروبة

ولما بلغ المعدن الى هذا الحد من صيرورته قواماً لاثمان العروض انتشر في البلدان الراقية فعمّ او كاد لحدا بالقوم الى تقلد درجة اخرى يؤمن بها من الخديعة والغش فاصبح النقود مضروبة لتقوم الدولة على ضربها بعد تمحيص معدنها وتحقيق مقدارها

لأن ضرب النقود لم ينحصر في الازمنة الاولى بالدولة لانا رأينا في زمن السيادة اليونانية ان كثيراً من الاقطار والمدائن كانت تضرب سكتها لدائها فتكون حكومتها الداخلية هي القائمة مقام الدولة السائدة عليها في ضمان ضربها ورأينا في اوائل الزمن الروماني حتى زمن اغسطس قيصر ان عظماء الرومانيين كانوا يضربون السكة باسمائهم وشعارهم

فكان بقاء الضرب مباحاً لبعض العظماء والاقطار بقية اثرية لزمن ماضٍ كان التعامل فيه بالمعدن قطعاً او سبائك مباحاً لاي شاء من الناس

على ان ضرب النقود سهّل المعاملات لان وزن الثمن كان يقضي باضاعة الوقت وقد يفضي في الاحايين الى الخصومة والنزاع لانهُ لا يخلو من مجال للخديعة والغش بحيث يفترض لسلامة المعاملة ان يكون المتعاملون جملةً عارفين متأهبين لتمحيص المعدن عند كل عقد يعتمدونهُ بخلاف حال المتجرين بعد رواج النقود فانهم يأمنون على سلامة عالم من الخديعة لان دولتهم تتولى ضرب النقود وتعديلها

فانقلب وجه المعاملة من وزن الثمن الى عدهِ وشعر الناس في كل طبقات المجتمع بالتحسين العظيم الذي أدخل على اعمالهم ولم تمضِ عليهم الا بضع عشرات من السنين حتى عمّ انتشار النقود وعظم قدر فائدتها فاعظم الناس نسبة لايجادها للبشر فاناطوا اسم مخترعها الحكيم ووطنهِ وعصرهِ وشرعوا يقولون بابداع اربابهم لها فنسبها بعضهم للمريخ وآخرون لزحل وغيرهم لغيرها من الارباب التي اوجدتها خيالاتهم ولم تخل عليها بالاوصاف والاساطير

تحاكت النقود غيرها من الاختراعات المفيدة التي انتفع بها الناس منذ بدء عمرانهم بانها شاع اسم واضعها الا ان للباحث العصري طرقاً علميةً يهتدي بها الى الصواب او يقترب منهُ

فقد قامت قيامة البحث والجدل فذهب بعضهم الى ان ضرب السكة فارسي النشأة وايدوا رأيهم بان اسم الدينار مأخوذ من السكة التي ضربها داريوس هستاسبس وان سكتي كاريا وليديا المضروبتين في طليعة الضاربين نقوداً لا تخلوان من شعار فارسي هو بالطبع مستعار من الذين سبقوا الى ذلك الضرب. والشعار المقصود هو رسم الاسد على نقود كاريا والاسد والثور يتنتلان على نقود ليديا والرسمان فارسيان يرمز بالاول الى القوة والنبالة

والسيادة وبالثاني الى تنازع الوطن والاجانب وغلبة الاسد رمز الوطنية

اما القائلون بالنشأة اليونانية فيستندون الى رواية ابي التاريخ هيرودوتس القائل ان الليديين كانوا اول من ضرب الذهب والفضة نقوداً . والليديون قومٌ من سكان اسيا الصغرى تجمعهم واليونان الاورمة البلاسجية وقربى اللغة والعادات وكان يتولى الحكم فيهم ملوك من اليونان البحت من الاسرة المعروفة بالمراقليدة التي انقرضت بمقتل آخر ملوكها وقيام جيجيس من فرع آخر من تلك الاسرة وزمن هذا الملك بين سنة ٧٥٥ وسنة ٧٠٠ ق.م فالى زمنه او الى زمن اعقابه ينسب ضرب السكة

وقرأ العلماء اثرًا قديمًا محفورًا على قطع رخامية مرّداه ان ليدون الارغومي كان اول من ضرب السكة من الفضة وذلك في جزيرة اجينا

ووجد في التحف البريطاني قطعة النقود النحيسة الايونية مضروبة في ملبوس يظهر من خشونة صنعها ومن مجمل هيئتها انها اقدم سكة معروفة حتى الآن فاستدل العلماء بها على ان اصحابها الكاريين كانوا اول من ضرب السكة والكاريون ايضاً من البلاسجة وقد نزلوا اسيا واستعمروها فالراجح اذاً من هذا كله ان الفضل في ضرب السكة عائدٌ الى الامة اليونانية البحتة ولكن لا يعرف حتى الآن الموضع الذي ضربت فيه اولاً — واما الزمن فمختلف فيه ولكنهُ لا يتجاوز القرن الثامن قبل المسيح

وبعد ان ضربت السكة وانتشرت وعمت البلاد وملكت ناحية التجارة وملأت الخزائن بعد هذا كله اخفى عليها الدهر فدالت دولها التي اعتزت بها وتغير شكل الجاريات على اثرها ضرباً ورسماً ولغةً حتى كاد الناس لا يعرفون من القديم شيئاً

الاّ ان الحضارة العصرية كشّافة الخبيئات فقد اظهرت دفائن الارض وملأت متاحفها من قديم النقود وحديثها في جملة ما جمعت من آثار السابقين فترى النقود المضروبة وقد غصّت بها المتاحف العامة والجامع الخاصة تجتذب الانظار ليس لعظيم قيمتها المادية بل لما يُرجى منها من الفائدة المعنوية لانها مرّت في مدى عصور على الصناعة في النقش والحفر والرسم فدلت على مكانتها عند الذين اصطنعوها واختلفت كتابتها فناً ولغةً ورمزًا فكانت تاريخاً سجلوا بالحقائق التي لا تختلف في صحتها

لم تُجمع هذه النقود القديمة للزينة ولا حُشدت للتفاخر ولكنها رتبت وصفّت واكبّ عليها الدارسون والباحثون هذا يأخذ عنها صحة روايتها وذاك تشغلهُ رسومها وغيرها تتجلى لهُ صناعتها وكلهم رأوا منها قطعاً ضُربت بين قوم لم يبرحوا الدرجات السفلى من مجتمعهم ثم

صعدوا فرافقتهم اخواتها في رقيهم درجةً فدرجة حتى بلغوا موضعهم من العمران

فدلالتها على احكام الصناعة او التصور فيها ما لا يرتاب فيهِ باحث والاسترشاد بها في ضبط توقيت الازمنة المجهولة لا يختلف فيهِ اثنان وفيها ذكرى لمؤرخ بما مرَّ عليهِ من اساطير الاقدمين واقاصيصهم ما يعبدون فضلاً عن هنالك من قوطا الفصل في مواضع يختلف عليها الرواة

اعتبر ذلك بما كان من خبر رواية لمؤرخ اسطفانوس البزنطي فيهِ قوم ضعيفٌ ذلك ان قومًا من اليونان برحوا بلادهم يقصدون المهاجرة سما الى اسيا الصغرى ليتنشوا لهم مستعمرةً فيها فلما ركبوا سفنهم وتبطنوا بها البحر لطمت بهم اسراب من عجول البحر مما يُدعى باليونانية فوكي حتى اذا توالوا البر اخطوا لهم مدينةً دعوها فوسيا وسمهم اسمها بعد حين فسموا فوسيين او فوقيين

تكاد هذه الحكاية تذهب بصدق الرواية جملةً لولا ان جاءت النقود القديمة مصدقة لها فعلى قطعةٍ منها يتنعي عبدها الى اواسط القرن السابع ق.م رسم اسرابٍ من عجول البحر وفي هذه القطعة من الصناعة الخشنة ما يدل على القدم

واما الرموز الدينيَّة فكثيرة على السكة وفي كثرتها مجالٌ لتحقيق ما رُوي من الاساطير والرموز والكنايات فترى السكة القديمة تتخذ شعار الارباب التي يعظمها ضاربوها فتنبي عن الافصاح بما كان يدين بهِ اصحابها فاذا رأيت سنبلاً من الشعير او الذرة فذلك رمز الى الالهة سريس واذا رأيت عنقودًا من العنب فذلك اشعار باكوس وان ابصرت ايلاً فالقوم يشيرون بهِ الى ديانا وليس هذا فقط بل ان ثمت من الشعار والرموز الشيء الكثير لغير من ذكر من الارباب

هذا شأن النقود القديمة اما المتأخرة عنها زمنًا فانها تشير الى وقائع تاريخية وانما صارت الى هذه الحالة منذ زمن الاسكندر المكدوني وعصر خلفائهِ المستقلين في دولهم

فمن اهم ما افادت ان التاريخ لم ينبئ صراحةً عن حال بلاد بكتاريا (بلخ) بعد الفتح الاسكندري بحيث لم يكن يُعلم شيءٌ من بقائها على طاعة اليونان بعد موت الفاتح العظيم وتقلص ظلّ قوته العسكرية عنهم بل ان كثيرين من الناس ظنوها مرقت من الطاعة وعادت الى شأنها الاول فلما رأوا النقود المتخلفة عن اصحابها عثروا انهُ وليها بعد الاسكندر كثيرون من الامراء المستقلين بصبغتهِ اليونانيَّة ولم يكن اظهار هذه الحقيقة التاريخية كل ما بان من نقود بكتاريا بل ترى ابحاثهم عن وشك قراءة لغةٍ جديدة وجدوها على النقود بعد ان لم تكن معروفةً من قبل

واما النقود الرومانية فانها افادت حقائق شتى من تاريخها حتى ان احد العلماء لقب تلك السكة بالجريدة الرسمية لانها تشرح اهم وقائع دولتها ألا ترى كيف انهُ لما غلب اغسطس قيصر على انطونيوس وكليوباطرة وفتح مصر ضرب النقود محفورًا عليها توطم Egypta Capta اي فتوح مصر

ومما يذكر ان الرومان بدأوا بنقودهم النحاسية قبل الزمن الامبراطوري اي في مدة الحكم الجمهوري والكلمة العليا فيهِ لندوة البلاد (السنا) فكانوا يحفرون على السكة S. C. مختصرين من Senatus Consulto اي برأي الندوة فلما جلس اغسطس قيصر على السرير وغيّر في ضرب النقود وشكلها وسك الذهب والفضة باسمهِ ظلَّ ضرب النحاس جاريًا باعتبار كونهِ نقودًا وطنيةً ولكنهُ كان يمتاز عن نقود القياصرة بالعبارة المروية قبيل هذا اي بقولهم برأي الندوة

ولما تسنى لاسبسيانوس قهر اليهود وفتح اورشليم كتب على نقودهِ ايضًا Judea Capta اي فتوح اليهودية

واغرب ما هنالك سكة ضربت على عهد تراجنوس حفر عليها ما تعريبهُ : لاحسن الامبراطرة القيصر نرفا تراجنوس اغسطس جرمانيكوس داشيكوس بارثكوس رئيس الاحبار القائم بمنصب السلطة القنصلية اي الوطن :

ورسم على الوجه الآخر تمثالهُ راكبًا جوادًا مطهمًا بالعدة الفاخرة وشرعًا رمحهُ ليطعن بهِ عدوًّا ملقى على الارض يظهر من قبعتهِ ولباسهِ انهُ رومي الى ملك الداشيين المغلوبين وهنالك كتابة معناها : الندوة والشعب الروماني الى احسن الملوك

فيتضح من هذه الكتابة ان الندوة اكرمت القيصر بعد غلبهِ على الداشيين بضرب هذه النقود تمجيدًا لاعمالهِ ونوهت بذلك واما قولها جرمانكوس داشيكوس بارثكوس فهي القاب تمرَّب بالجرماني الداشي البرثي ولا يراد بها نسبة قيصرهم لتلك البلاد بل التنويه بظفرهِ عليها

ولا يحسن القارئ لاحتواء قطعة صغيرة على مثل هذا الكلام الكثير فان الذين حفروهُ على المعدن لم يكونوا يكتبون الكلمة بكل حروفها وانما كانوا يكتبون من كل كلمة حرفًا او حرفين وبذلك تركوا لقراء كتابتهم مجالاً لاظهار براعتهم

ولهذا القيصر نقود اخرى تشير الى حادث تاريخي مهم ذلك انهُ مثَّل بها القيصر جالسًا على كرسي وهو يتوج ملكًا واقفًا امامهُ واسم الملك المتوج رجلٌ جاثٍ يستقبل المتوج بالقبلة الواجبة للملك وتحت هذه الرسوم كتابة لاتينية نصها Rex. Parthis. Datvs.

اي اعطى للبريطانيين ملك . وفي تشير الى ان البريطانيين اعداء الرومانيين الاشداء دانوا لسلطان تراجنوس فانثنوا منهُ ان يقيم عليهم ملكاً فعمل

هذا بعض ما افاد درس النقود القديمة ولو وسع المقام لاسهبنا فيهِ ولكنا اجتزأنا بالقليل الدال على موضع هذا الدرس من الفائدة

فحري بادبائنا ان يقرأوا علم النقود القديمة Numismatique; Numismatics فهو على حداثة عهدهِ لا يعدم مكانةً سامية عند الافرنج ومع ان بلادنا النجيبة الارجاء قد ملأت خزائن الجماع والمتاحف مما وجد فيها فهي ما برحت معيناً لا ينضب لانواع النقود المضروبة في عصور شتى . وترى الباحثين في الآثار كلما ملكوا قطعةً اكبوا على درسها فيجنون منها الفائدة الادبية . والتجّار بها يربحون الربح المالي ولو كانوا يفقهون قدر ما يتعاملون بهِ لزاد كسبهم

فعسى هذه السطور ان تحرك الهمم الشرقية فتفوز البلاد في القريب العاجل بقوم يجعلون دأبهم البحث والتفتيش عن نقود قديمة يقرأونها ويستنبطون منها الاحكام الصحيحة ويستجلون الحقائق الغامضة فيكونون مشكاة علم وعرفان وينقضي فعلاً زمن الاهتمام بالكسب المادي مجرّداً عن كل فائدة ادبية لاحد المشتغلين بهذا العلم

حمّى مالطة

ذكرنا في الجزء الماضي انهُ ظهر بالبحث ان السبب الاكبر لانتشار الحمّى المعروفة بحمّى مالطة هو شرب لبن المعزى اي ان المعزى سبب هذه الحمّى . وقد وقفنا الآن على كلام في مجلة ناتشر في هذا الموضوع قيل فيهِ ان جزيرة مالطة يجب ان تكون من اصح البلدان هواء لانها واقعة في وسط البحر المتوسط تعصف بها الرياح الاربع فتنقي هواءها وتفيض عليها شمس اكثر شهور السنة فتطهرها وليس فيها برك ولا مستنقعات فلا سبيل لدخول الملاريا اليها ولو كان هواؤها حارّاً لان الحمّى الملارية لا تتولّد الاّ من البعوض الذي يتولّد في برك الماء . ولكن انتشر في هذه الجزيرة منذ زمن طويل حمّى مسمومية اصيب بها سكانها بنوع عام والحامية الانكليزيّة التي فيها بنوع خاص فيصاب بها كل سنة نحو ٦٥٠ من الجنود والبحارة يقيم كلٌّ منهم مريضاً نحو ١٢٠ يوماً فكأنهم يمرضون ثمانين الف يوم في السنة ولا يقف الضرر عند هذا الحد بل يضطرّ كثيرون منهم ان يعودوا الى البلاد الانكليزيّة لكي يستردّوا صحتهم فتزيد النفقات عليهم وعلى الحكومة